مرجعية المصادر الأدبية التلمسانية في تاريخ الحضارة الإسلامية

د. عبد الواحد عبد السلام
شعيب / ليـــبيا

تحتل الحاضرة الجزائرية تلمسان مكانة شهرى بين مراكز الإشعاع الفكري والحضاري في العالم الإسلامي مثل مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، وقرطبة وغرناطة وغيرها . وذلك من خلال ما أنجبته من فحول العلماء وجهابذة المفكرين والأدباء ، الذين نبغوا في غير ما فنّ من فنون العلم وضروب المعرفة ، وجعلوا من مدينتهم مناراً شعاعاً للفكر والثقافة عبر الأحقاب والأعصر ، وهو الأمر الذي أدى إلى أن يتوارث أهلها العلم والسؤدد كابر عن كابر وخالف عن سالف وجيل بعد جيل .

كما أسهم العلماء التلمسانيون من جهة أخرى في ازدهار الحركة الفكرية في العديد من الحواضر المغربية والمشرقية التي هاجروا إليها واتخذوها مستقراً ومقاماً إذ تصدّوا فيها للقيام فيها بالتدريس أو الخطابة أو القضاء والفتيا ،ناهيك عن تأليفهم للمؤلفات والموسوعات التي أضحت مصدراً أساسياً في دراسة تراث المسلمين وحضارتهم في العصور المختلفة .

وفيما يتعلق بالأدب (نظمه ونثره) وكذلك الكتابة فإن تلمسان تعتبر صاحبة القدح المعلّى في هذا الشأن إذ إنّ التكايف الأدبية التلمسانية مثل (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسن الدين بن الخطيب) و (أزهار الرياض في أخبار عياض) و (وروضة الآس) لأحمد المقري التلمساني هو خير شاهد على ما وصلت إليه المدرسة الأدبية التلمسانية من تميز وتطور .

لا بل إن حجم المادة الأدبية ـ الشعرية والنثرية ـ التي زودتنا بها هذه المصادر تعدّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من أضخم ما بقي من كتب التراث بالغرب الإسلامي قاطبة .

وهكذا وانطلاقاً من هذه الفرضية ، فإني ارتأيت أن يكون موضوع بحثي في هذا الملتقى العلمي الدولي الحافل هو [مرجعية المصادر الأدبية التلمسانية في تاريخ الحضارة الإسلامية] في محاولة لإبراز الدور الفاعل للأدباء التلمسانيين في الميدان العلمي والحضاري وعلى رأسهم جاحظ المغرب الشهير ، والكاتب المفلق أبوالعباس أحمد المقري ، صاحب التصانيف الشهيرة ، وذلك من خلال المباحث التالية :

- المقري التلمساني رمز للتواصل العلمي بين تلمسان والحواضر المغربية والمشرقية .
- التأثير الأندلسي في كتابات الأدباء التلمسانيون .
- تميز الموسوعات الأدبية التلمسانية وتنوّع ثقافتها . .
- القيمة العلمية والحضارية للمصادر الأدبية التلمسانية . .

أولاً : المقري التلمساني رمز للتواصل العلمي بين تلمسان والحواضر المغربية والمشرقية :

اشتهرت حاضرة تلمسان منذ القدم بخصوبة أرضها وكثرة مياهها ورخاء أهلها [1] ، فضلاً عمّا تتميز به من موقع استراتيجي ، وطبيعة خلابة وهذا هو ما أهّلها لأن تكون مركز إشعاع فكري وثقافي طوال تاريخها الطويل الحافل ، وذلك من خلال من ظهر فيها من الأعلام ورجال الفكر الذين تألّقوا في ميادين العلم المختلفة كالفقه والحديث والتفسير واللغة والتاريخ والسير والأدب والطب وغيرها .

لكن هذه المدينة الشامخة لم تكن موئلاً للعلماء والدارسين فحسب بل كانت لها علائق علمية متينة ومشائج قوية مع بعض المدن والأقاليم الإسلامية الأخرى مثل بلاد الحجاز والشام ومصر وبغداد والقيروان وفاس ومراكش وبلاد الأندلس .

ولما كان القاسم المشترك في حركة التواصل العلمي بين تلمسان وهذه الحواضر هم العلماء والأدباء ومؤلفاتهم الزاخرة على وجه الخصوص فإننا سنعرض لبعض النماذج التي كان لها إسهام فاعل في الميدان العلمي والحضاري بهذه الأصقاع ومن هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر :

- محمد بن مرزوق الخطيب الذي رحل إلى فاس في المغرب وأجاز بها وكان حياً سنة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

918 هـ[2].

ـ محمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد (ت 1001 هـ) والذي هاجر إلى المغرب وتقلد وظائف القضاء والتدريس في مدن فاس ومكناس وغيرها[3] .

ـ ومنهم محمد بن عبدالرحمن المعروف بابن جلال الذي رحل إلى فاس وتولى الخطبة في جامعي الأندلس والقرويين بها ، فضلاً عن قيامه بالتدريس والإفتاء كذلك[4] .

ـ أحمد المقري التلمساني : (ت 1041 هـ) الذي يمثل بحق أنموذجاً في التواصل الثقافي بين تلمسان وبعض المدن المغربية والمشرقية : وقد عرف المقري بثقافته الموسوعية ، لتمكنه من عدة علوم كالفقه والتفسير والحديث والأدب والمحاضرات[5] والكتابة والتّاريخ وغيرها . والذي يقول في ترجمته صاحب (الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام) : (حافظ المغرب جاحظ البيان ، ومن لا نظيره في جودة القريحة وصفاء الذّهن ، وقوّة البديهة)[6] .

بيد أن هذا العلامة الكبير لم يكن إلا واحداً من نجباء المدرسة التلمسانية التي نهل من علومها واغترف من معينها وانتهج بمنهجها ، إذ كان عمدته في ذلك عمه العالم الفذّ : سعيد المقري[7] فقيه تلمسان وكبير مشيختها ، كما أخذ أيضاً بفاس عن القصّار وابن أبي النعيم ، وأحمد بابا التنبكتي وأحمد ابن عمران وغيرهم[8]

وقد كان العلماء والشيوخ قد عرفوا بكثرة رحلاتهم وتنقلهم بين المدن والحواضر الإسلامية عبر العصور لأي كان ، فإن أحمد المقري قد ترك مسقط رأسه تلمسان وزار وأقام في عدة مدن وعواصم مغربية ومشرقية ومن أهمها مدينة فاس بالمغرب الأقصى والتي حظي فيها بمكانة ساحقة حيث صار مجلسه بجامع القرويين مجلساً مقصوداً يؤمه طلاب العلم وروّاد الأدب ، ويقبل الفقهاء والمثقفون على قراءة كتبه الدينية والعلمية والأدبية ويتنافسون في انتساخها ، ويلتمسون منه الإجازة وأخذ الرواية[9] ، كما تولى الخطابة والإمامة[10] بهذا الصّرح العلمي الكبير . وقد أبهر المقري علماء فاس بعلمه الجمّ ، وقوة عارضته وغزارة حفظه حتى استجازوا لأنفسهم من عمه سعيد المقري بواسطته[11] .

لا بل إن الفقيه والمؤرخ ابن القاضي المكناسي صاحب (جذوة الاقتباس) قد كتب شعراً إلى سعيد المقري في تلمسان يشكره فيه على إتحافه لأهل فاس بهذا العالم المتفنن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأديب الناقد ومنه قوله:

أرسلت للغرب القصيّ بــــدّرة *** قد أبهرت وغلت له الأسوام

جمع العلوم على حداثة سنّــــه *** قد بارك الله به العــــــــلام

أكرم به من عالم علاّمــــــــة *** جمع العلامة وزكت به الأفهام

فجزيت خيراً يا سعيد عن الورى *** بابن الأخ العلا الصّمصــام[12]

وهكذا وبناءً على ما تقدم فإن أحمد المقري التلمساني يعد جسراً مهماً للتواصل العلمي والأدبي بين حاضرتي تلمسان وفاس من ناحية وأنه قد أسهم في تفعيل وإثراء الحياة العلمية والأدبية في هاتين المدينتين من ناحية أخرى .

وفي مدينة فاس التي اتخذها المقري مستقراً له ، قام بتأليف مؤلفه القيم (أزهار الرياض في أخبار عياض) بين عامي : 1013 ـ 1027 هـ[13] ، وكان الباعث على تأليفه رغبة أهالي بلده تلمسان في التعريف بحافظ المغرب الشّهير القاضي أبوالفضل عياض السّبتي[14] (تـ 544 هـ) صاحب التصانيف البديعة والمؤلّفات النّاصعة مثل (ترتيب المدارك) و (مشارق الأنوار) و (بغية الرائد) و (الإلماع) و (الغنية) والشّفا بتعريف حقوق المصطفى) صلى الله عليه وسلم و (الفنون الستّة في أخبار سبتة وغيرها) .

وعلى الرغم من أن المقري قد خصّ هذا الكتاب بالترجمة للقاضي عياض وتتبع سيرته وأخباره ودراسة نشاطه العلمي والأدبي ، إلا أنه قد ضمّنه كذلك مادة غزيرة عن أخبار الأندلس وحضارتها ، ولمع من أخبار وزيرها وأديبها لسان الدين بن الخطيب على سبيل الاستطراد الأمر الذي جعل منه موسوعة تاريخية أدبية قيّمة لكن إنجاز المقري لهذا المؤلّف في حاضرة فاس بالذات كان له دلالته واعتباراته وذلك للأسباب التالية :

1 . أنه يعتبر حلقة من حلقات التواصل الثقافي والأدبي بين الحاضرتين تلمسان وفاس .

2 . أن تأليف كتاب علمي كهذا حول العلاّمة المغربي القاضي عياض ، يعد ضرب من الوفاء لهذا العالم الجليل من ناحية ولأهل المغرب وبخاصة رجال فاس الذين احتضنوا المقري وأكرموا مثواه من ناحية ثانية .

3 . يفصح هذا التأليف عن العمق المنهجي لدى المقري التلمساني فضلاً عن درايته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلمية ، إذ تنبّه إلى ضرورة سدّ النقص الذي تعانيه المكتبة العربية من مؤلف جامع لسيرة حافظ سبتة والغرب الإسلامي عياض .

4 . إن ما اشتمل عليه كتاب (الازهار) من زخم علمي ، ومادة تاريخية وأدبية رصينة ، قد جعل منه مصدراً مهمّا لدراسة تاريخ المسلمين وحضارتهم في الحقبة الوسيطيّة وعلى الأخص في بلاد المغرب والأندلس .

ومن نافلة القول أن المقّري التلمساني قد ألّف كتاباً آخر ألا وهو (روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مرّاكش وفاس) والذي يبدو أنه قد دبّجه في مدينة فاس أيضاً أو بدأه في بلده تلمسان[15] ثم استكمله هناك . وهذا الكتاب يكتسي أهمية كبرى من خلال عنوانه إذ يدرس الصّلات الثقافية بين الحواضر الثلاث تلمسان ومراكش وفاس ، وأن أحمد المقري يمثّل فيه همزة الوصل وأداة التفاعل العلمي بين علماء وأدباء هذه المدائن المغربية .

يضاف إلى ذلك أن كتاب (روضة الآس) هذا ، يعد وثيقة تاريخية وأدبية فريدة لأن صاحبه ترجم فيه لعدد كبير من العلماء والأدباء ممّن عايشهم واستقى معظم مادته العلميّة منهم مشافهة أو مناولة ، سواءً أكانت نصوصاً تاريخية أم شعرية ونثرية ، مع أن الكثير منها لم تتوفر في أيّ مصدر آخر غيره .

ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمة الحسن المسفيوي : ((الكاتب الناثر الناظم البليغ المجيد ، الباقعة ، المشارك المتفنن الذي لم يدرك ابن نباته مواقعه ، ...... من أهل مراكش ، لقيته بها وشاهدت كثيراً من أحواله ، وقيّدت من ألفاظه وأقواله))[16] .

أما الفقيه والأديب أحمد بن عبدالواحد الحسني فيقول فيه : ((لقيته بمراكش وأنشدني كثيراً من نظمه ، فمن ذلك قوله :

من منقذي من شادن فاتـــن *** يؤثره البدر على نفســـــه

إذا انتضا من لحظه صارماً *** ما أقرب الإنسان من رمسه[17]

وكانت المحطّة الثانية لأحمد المقري في المغرب هي مدينة مرّاكش التي أقام فيها مدة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

، وتعرف فيها على عدد من العلماء والأدباء الذين كانت تعج بهم هذه الحاضرة ، فروى عنهم الكثير من الأشعار والنّثار والأخبار والتي دون جزءاً منها في مؤلفه (روضة الآس) .

كما تحصّل خلال إقامته بمراكش على إجازة اثنين من العلماء والأدباء المشاهير وهما : المؤرخ الأديب أحمد بن القاضي المكناسي[18] (ت 1025 هـ) صاحب كتاب (جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس) والفقيه المؤرخ : أحمد بابا التنبكتي[19] السّوداني (ت 1036 هـ) صاحب كتابيْ (نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج) في طبقات المالكية ومختصره أو ذيله (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج) وغيرهما .

وإذا كان أحمد المقري قد أسهم إسهاماً فاعلاً في توثيق الصّلات العلمية والأدبية بين مدينتي تلمسان وبعض المدن المغربية كما أسلفنا فإننا نجده قد ربط جسراً ثقافياً آخر بين حاضرته من جهة وبين الحجاز والشام ومصر من بلاد المشرق الإسلامي من جهة أخرى .

وهكذا فما إن حلّ بمكة والمدينة سنة (1037 هـ) حتى شرع في تصنيف عدة مؤلفات بالروضة النبوية ومنها: (فتح المتعال في مدح النّعال) الذي أعاد كتابته عند قدمي الرسول صلى الله عليه وسلم ، (وأزهار الكمامة في العمامة) الذي ألفه تجاه رأسه صلّى الله عليه وسلم و (إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنّة)[20] .

ولم يقتصر النشاط العلمي للمقري التلمساني في الحجاز على هذه التأليفات وحسب بل شارك كذلك في إلقاء الدروس والمحاضرات في علوم الفقه والحديث والسّيرة النبويّة العطرة وغيرها .

وفيما يتعلق ببلاد الشام فإن المقري قد حظي بحفاوة كبيرة واحترام بالغ من أهالي دمشق الذين أكرموا مثواه وأحسنوا استقباله حتى فكر للإقامة فيها عوضاً عن مدينة فاس التي تركها مضطراً بسبب تردّي الأوضاع السياسية بعيد وفاة سلطانها المنصور الذهبي وتصارع أبنائه من بعده على حكم البلاد .

كما ألقى المقري على عادته عدداً من الدروس ببعض مدارس دمشق وبالجامع الأموي بها كذلك[21] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : التأثير الأندلسي في كتابات الأدباء التلمسانيين :

نظراً للازدهار الفكري والأدبي الذي عرفته بلاد الأندلس طوال عهودها الإسلامية ، والتي استمرت نحواً من ثمانية قرون (92 هـ ـ 711 م / 897 هـ ـ 1492 م) ، لذا فإن ما أنجبته من كبار العلماء وذوي النباهة كان له انعكاساته وتأثيراته القوية على المناطق المجاورة للعدوة الأندلسية وبخاصة بلاد المغربين الأوسط والأقصى نتيجة لقرب المسافة من ناحية ، ولهجرة العلماء واختلافهم جيئة وذهاباً بين الجانبين من ناحية ثانية.

لكن إذا كان الأديب الجزائري محمد بن ميمون قد ذهب مذهب الأديب الأندلسي الفتح بن خاقان[22] (ت 529 هـ) صاحب كتابي (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) ، فإن أحمد المقري يعد من أكثر الأدباء المغاربة تأثراً بالفكر الأندلسي وعلى الأخص بمنهج وطريقة الأديب النّاقد والمؤرخ الثّبت لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) صاحب التصانيف الشهيرة والكتابات البليغة ، والذي من فرط ولعه به ، وبتمكنه العلمي والأدبي ، أن أنجز فيه موسوعة فريدة ألا وهي (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وفاءً لما أسداه من خدمة جليلة للأدب والتاريخ الأندلسي والمغربي على حدّ سواء .

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن أن نلحظ مناحي تأثير الثقافة الأندلسية في كتابات المقري في مواطن كثيرة ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر :

ـ استشهاده في كتابيه القيّمين (النّفح) و (الأزهار) بأعداد وفيرة من نصوص ابن الخطيب النثرية والشعريّة وتفضيلها على غيرها في كثير من الأحايين ومنها مثلاً قوله في وصف بلده الأندلس : ((خص الله بلاد الأندلس من الرّيع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحّر العمران ، وجودة اللّباس ، وشرف الآنية ، وكثر السّلاح ، وصحّة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطّباع[23] .....)) .

ويمكن أن نقارن هذا النّص بما ذكره المقري في (نفحه) عن الأندلس أيضاً حين قال : ((وكنت في المغرب ، وظلال الشباب ضافية ، وسماء الأفكار من قزع الأكدار صافية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

، معتنياً بالفحص عن أنباء الأندلس ، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس ، وما لهم من السّبق في ميدان العلوم ، والتقدّم في جهاد العدوّ الظّلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جدالهم وجلادهم ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير ، وانتقيت جواهر ، فرائدها للعقول بواهر ، واقتطفت أزاهر ، أنجمها في أفق المحاضرة زواهر[24] ....)) .

وبالمقارنة بين هذين النّصين نلاحظ مدى تأسي المقري بالأديب الغرناطي ابن الخطيب والاحتذاء بطريقته واستنهاج سبيله .

وفيما يختصّ بالشعر فإن المقري كثراً ما يلجأ في قصائده وأشعاره إلى التمثل بأقوال الأندلسيين في نظمهم أو الاقتباس منها ومحاكاتها ، كلما تسنّى له ذلك ، وهذا راجع في الوقت نفسه إلى قوة ذاكرته وغزارة حفظه ودرايته بأدب الأندلس وتاريخها الحافل .

ومن أمثلة ذلك قوله في شعر له :

ليالي لا ألوى على رشد ناصح *** عناني ولا أثنيه عن غيّ لائم

أنال سهادي من عيون نواعس *** وأجني مرادي من غصون نواعم

وليل لنا بالسدّ بين معاطف *** من النهر ينساب انسياب الأراقم[25]

وهنا يبدو أن المقري قد تأثر في البيتين الأخيرين بقصيدة الأمير الشاعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية على عهد الطوائف والتي جاء فيها :

ألا حيّ أوطاني بشلب أبابكـــــــر*** وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدري

منازل آساد وبيض نواعـــــــم *** فناهيك من غيل وناهيك من خِدر

وليل بسدّ النّهر لهواً قطعتـــــه *** بذات سوار مثل منعطف البدر[26]

أما قوله :

تمر إلينا ثم عنّا كأنهـــــــا *** حواسد تمشي بيننا بالنمائـــــــم

وبتنا ولا واش نخاف كأنما *** حللنا مكان السرّ من صدر كاتم[27]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلعّله مأخوذ من ابن زيدون في نونيّته الشهيرة عندما يقول :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا *** والسّعد قد غضّ من أجفان واشينا

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا *** حتى يكاد لسان الصّبح يفشينا[28]

وبالنسبة لقصيدته التي مدح بها المنصور الذهبي والتي مطلعها :

سعد الزمان بدولة المنصور *** وغدا الورى في غبطة وسرور[29]

جاء فيها : لازالت الأيام طوع يمينـــــه *** والنصر يخدمه ممرّ دهـــــــور[30]

لذلك فإن هذا البيت ربما يذكر ببيت محدّث الأندلس الشهير ومؤرّخها القاضي أبوالوليد بن الفرضي (ت 403 هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الاندلس) والذي يقول :

إن الذي أصبحت طوع يمينه *** إن لم يكن قمراً فليس بدونه[31]

وفي شعره الذي قاله في الحنين إلى مسقط رأسه تلمسان ومدينة فاس بالمغرب عندما كان مقيماً في مصر قوله :

وأربع الآف إذا ما ذكرتهـــــــا *** بكيت وقد يبكيك أأنت ذاكر

بطاح وأدواح يروقك حسنهـــــــا *** بكل خليج نمنمته الأزاهر

بحيث الصبا والترب والماء والهوا *** عبير وكافور وراح وعاطر[32]

فالبيت الأخير يبدو أنه قد تمثّل فيه قول العلامة الأندلسي أبومحمد بن حزم (ت 456 هـ) عندما قال :

كأن النّوى والعتب والهجر والرّضا *** قران وأنداد ونحس وأسعد

ولما كان أحمد المقري كثير الإعجاب بالقصائد والأشعار الأندلسية البليغة لذا نراه كثيراً ما يستشهد ببعض منها أو يقارنها بغيرها ممن هي على شاكلتها مثال ذلك ذكره لأبيات من قصيدة الفقيه والأديب محمد بن عبدالعزيز الفشتالي الذي عارض فيها نونية بن زيدون الشهيرة في قوله :

ما كان أغنى الزمان عن تنائينا *** ولم يكن ببغيض الصدّ يؤذينا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تولعت حسداً أيدي الزّمان بنـا *** لذلك الوصل طبعاً إذ يواتينا[33]

لكن إعجاب المقري بقصيدة ابن زيدون هذه لم يقف عند هذا الحدّ ، بل نجده هو الآخر يتمثل بأبيات منها أو ينسج على منوالها ، ومنها قوله :

بلادي التي أهلي بها وأحبتـــــي *** وروحي وقلبي وطناً والخواطر .

إذا العيش صاف والزمان مساعد *** فلا العيش مملول ولا الدهر جائر[34]

قارن هذا البيت الأخير بما جاء عند أبن زيدون :

إذ جانب العيش طلق من تألّفنا *** ومورد اللّهو صاف من تصافينا[35]

وهكذا يتبيّن من خلال هذه النصوص النثرية والشّعرية التي أوردها أحمد المقري في تآليفه مدى تأثره بالفكر الأندلسي من جهة ومدى إلمامه وكثرة اطّلاعه على مصادره ومظّانه

من جهة أخرى الأمر الذي جعل من كتابيه (الأزهار) و (النفح) أنفس وثيقتين لدراسة التاريخ والأدب الأندلسيين وأشملهما .

ثالثا: تميز الموسوعات الأدبية التلمسانية وتنوّع ثقافتها :

لما كان كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) و (أزهار الرياض في أخبار عياض) لأحمد المقري هما من أهم المصادر الأدبية التلمسانية ذات الطابع الموسوي لذلك يستوجب الوقوف على ما يتميزان به من زخم علمي وتنوع ثقافي ، ممّا لا يتوفر عليه في الكثير من المظان الأخرى وعليه فيمكن أن نجمل مناحي هذا التميّز في النقاط التالية :

أ . إن هذين المؤلّفين اعتمدا على كم هائل من المصادر والمراجع العلمية المختلفة مثل كتب التاريخ العام والحوليات والتراجم والطبقات والسّير والأنساب والجغرافيا والرحلات وتواريخ الأدب والأمثال والحكم ودواوين الشعراء وكتب الحديث والفقه والنوازل والأحكام الفقهية ، والمناقب والكرامات وغيرها .

ونظراً لدقة أحمد المقري المتناهية في انتقاء مادته العلمية نثراً وشعراً وخبراً من أوثق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر وأرجح الرويات لذا فإنه اعتمد في أغلب الأحيان على ما كتبه الثّقات في فنون العلم المختلفة ، مما جعل مؤلفاته تتميّز بالمصداقية والقوّة والرّصانة .

وعلى ذكر المادة المصدرية للمقري في كتابيه المذكورين فإننا نجد أن بعضاً منها قد فقد ولم يبق منها إلا بعض النصوص أو الشذور التي ضمّنها في كتابيه هذين بحيث أضحت لا توجد إلا لديه ، ومن هذه المصادر على سبيل الاستدلال :

ـ موسوعة شيخ مؤرّخي الأندلس أبومروان بن حيّان (ت 479 هـ) الموسوم بـ (المتين) والذي كان يتكون في الأصل من ستين مجلدة[36] .

ـ كتاب (عائد الصلة)[37] للأديب والمؤرخ الغرناطي لسان الدين بن الخطيب .

ـ رسالة العلامة ابن حزم التي سمّاها بـ (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها[38])

والتي تعد أول ببليوغرافيا أندلسية في التعريف بعلماء الأندلس وأدبائها حتى عصره (ت 456 هـ) .

ـ (الاعتماد في أخبار بني عباد)[39] و (سقيط الدرّر ولقيط الزّهر) في شعر بني عبّـــــاد ، و (نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبّادية)[40] للأديب والشاعر الأندلسي الكبير ابن اللبّابة .

ب . ضخامة حجم المادة العلمية لمواضيع هاتين الموسوعتين (النّفح) و (الأزهار)

بسبب كثرة الاستطرادات والتفصيلات الطويلة التي طغت على منهج المقّري فيهما . بحيث أن ثقافته الموسوعية وتحمّسه الشديد من أجل جمع وملمة أكبر قدر ممكن من المعلومات عن القاضي عياض في (الأزهار) وابن الخطيب وبلاد الأندلس في (النفح) هما الذين أدخلاه في هذه الاستطرادات والشروح المستفيضة ، والتي في رأينا لم تؤثر على أهمية هذين الكتابين القيّمين بل أكسبتهما صفة الشّمولية والموسوعيّة والتفرّد باحتوائهما على نصوص وأشعار دون غيرهما من المصادر الأخرى .

ج . إن تأسّي أحمد المقري بابن الخطيب في (الإحاطة) وكتبه الأخرى ، قد جعله يحتدي حدوه في سلاسة الأسلوب وبلاغة العبارات وجزالة الألفاظ وقوة المعاني ، وهو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما ساعد بدوره على إقبال واقتناء الدارسين لها والاستفادة من مادتها العلمية المتنوعة .

د . كما أن الثقافة الدينية لأحمد المقري ودرايته بعلوم الحديث والفقه والتفسير والسيرة قد أضفت على كتابيه قيمة أكبر بحيث توفّرا على الكثير من الآيات والاقتباسات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض المسائل الفقهية ، ناهيك عن التعريف بأسماء العديد من جهابذة الفقهاء والمحدثين وبمؤلّفاتهم ومصنّفاتهم التي سارت بها الركبان وطارت شهرتها في الآفاق مشرقاً ومغرباً .

هـ . ولما كان المقري هو من أعلام القرن الحادي عشر الهجري (986 ـ 1041 هـ) لذلك فإنه أفاد إفادة جمّة من نتاج ممن سبقه من المؤرخين والادباء والأنلسيين بخاصة بحيث صارت تآليفهم وكتاباتهم مصادر أساسيه في استقراء مادة (نفحه) و (أزهاره) وهو ما جعل هذين المصدرين كشكولاً من المعارف ، وأرشيفاً لأعلام الفكر والثقافة ببلاد المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي لهما وحتى القرن الحادي عشر الهجري الذي عاش فيه .

و . كان لعامل الرحلة العلمية أثره الكبير على ثقافة المقري وعلى موسوعيته العلمية ، إذ أن تنقله بين الحواضر المشرقية والمغربية مثل فاس ومراكش ومكة والمدينة ودمشق والقاهرة وملاقاته لكبار العلماء والشيوخ ، فضلاً عن قيامه بأعمال التدريس والإمامة والخطابة ، كل ذلك قد جعله على اطلاع واسع بالثقافتين المغربية والمشرقية أيضاً ، وعليه فقد انعكس ذلك على تآليفه التي ضمّنها معلومات جدّ مهمة عن التواصل العلمي والفكري بين جناحي العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، إذ خصّص جزءاً من كتابه (النفح) لرحلات الأندلسيين لبلاد المشرق ، وللمشارقة الذين هاجروا إلى العدوة الأندلسيّة ، مع الاتيان بفقر من سيرتهم ولمع من أخبارهم وأشعارهم .

رابعاً : القيمة العلميّة والحضاريّة للمصادر الأدبيّة التلمسانيّة :

إن مما زاد من أهمية وشهرة كتابي (نفح الطيب) و(أزهار الرياض) للمقري التلمساني هو كون صاحبها قد عرف بتحريه الشديد ودقته البالغة في انتقاء واختيار أرجح وأقوى الروايات في التعريف بتراجمه وتتبع أخبارهم وأحوالهم ، بعد أن يقوم بمسح شامل لكل ما يتعلق بالموضوع الذي يكتب فيه ، ثم يقدم المادة العلمية في غاية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوضوح والرّصانة ، ولعل من أمثلة ذلك عنده ما ذكره في نسب حافظ المغرب القاضي عياض حين قال :

((وبالجملة فما ذكرنا أولاً في تعداد آباء القاضي عياض ـ رحمه الله ـ هو الذي عليه المعوّل ، وعليه اعتمد ولده وابن الملجوم ، وابن بشكوال ، وابن جابر ، وابن الخطيب ،في (الإحاطة) وغير واحد ، وكفى بهؤلاء ، وناهيك بولده، وابن الملجوم ،الذي أخذ ذلك من لفظه ، حسبما سبق آنفاً ، وهو الصواب الذي لا يُعدل عنه

والله تعالى أعلم))[41] .

وهنا نشاهد أن المقري قد اعتمد على قول أقرب الناس بالقاضي عياض وهما ابنه محمد الذي تتلمذ على يديه ، وابن الملجوم الذي أخذ عنه مشافهة ، وهذا مما يؤكد القيمة الوثائقية لكتابات المقري الأدبية .

كما أن ما يبرز القيمة العلمية لكتابي (النفح) و (الأزهار) أيضاً هو انتقاء صاحبهما للقصائد الغرّ والأشعار البليغة لكبار الأدباء والشعراء والإتيان بها كاملة مثل :

نونية ابن زيدون الشهيرة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا *** وناب عن طيب لقيانا تجافينا [42]

وقصيدة أبي البقاء الرُندي في رثاء الأندلس ومطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان *** فلا يغرّ بطيب العيش إنسان[43] .

ومنها قصيدة لسان الدين بن الخطيب التي قالها في زيارته لقبر المعتمد بن عباد أمير إشبيلية بأغمات بجنوب المغرب والتي جاء فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمـــات *** رأيت ذلك من أولى المدلهمّات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يـــداً *** وياسراج الليالي المدلهمذات

وأنت من لو تخطّى الدهر مصرعه *** إلى حياتي لجادت فيه أبياتي

كرمت حيّا وميتاً واشتهرت عـــلاً *** فأنت سلطان أحياء وأموات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ماريّ مثلك في ماضي ومعتقـــدي *** أن لا يرى الدهر في حال ولا آتي[44]

وقد كان المعتمد بن عباد هذا أديباً وشاعراً كبيراً ، ومن شعره الذي قاله في سجنه بأغمات وهو يتذكّر قصوره ومنازله :

بكى المبارك في إثر ابن عبـــاد *** بكى على اثر غزلان وآساد

بكت ثريّاه لا غُمّت كواكبهـــــا *** بمثل نوء الثريّا الرّائح الغادي

بكى الوحيد ، بكى الزاهي وقبته *** والنهر والتاج كلّ ذُلّه بادي

ماء السماء على أفيائـــــه دِرَرٌ *** يالجة البحر دومي ذات إزباد[45]

وهنا نجد أن أحمد المقري قد ذكر هذه الأبيات في التأريخ لدولة بني عباد في إشبيلية على عهد الطوائف وملكها المعتمد وقصوره وآثاره .

كما تجدر الإشارة إلى أن أحمد المقري قد ضمّن كتابيه (الأزهار) و (النفح) وكذلك (روضة الآس) أخباراً وأشعاراً عن العديد من المعالم الحضارية سواءٌ في الأندلس أوالمغرب ، ومنها ما شاهده بنفسه وأدرك بناءها ، مثال ذلك ما أورده في الترجمة للمنصور الذهبي الذي قال عنه : ((ومن مآثره نصره الله ، ومفاخره العلوية النبوية ، بناء القناطر والمساجد ، حسبما ظهر ذلك للغائب الشّاهد ، وما أنا ذاكر طرفاً مما رأيت من ذلك ، فمن ذلك بناء المسجد العظيم بحارة ياسر من حضرتهم المراكشية[46])) و عن المعالم الحضارية التي اشتهرت بها العاصمة الأندلسية قرطبة فستشهد المقري بشعر للعالم المفسر أبومحمد عبدالحق بن عطية (ت 541 هـ) .

الذي يقول فيه : بأربع فاقت الأمصار قرطبة *** وهنّ قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثناتان والزهراء ثالثة *** والعلم أكبر شيء وهو رابعها[47]

ومن اللافت للانتباه أيضاً أن المقري قد ضمن كتابه (نفح الطيب) على وجه الخصوص بتراجم مهمة لأعداد من شهيرات النّساء وإسهامهن العلمي والحضاري .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش وإحالات:

(1) ينظر : محمد عبدالمنعم المحيري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عبّاس ، ص

(2) أبوالقاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي .

(3) أبوالقاسم سعد الله : ج 1 ، ص : 432 .

(4) المرجع نفسه ص 432 ـ 433 .

(5) العباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ، المكتبة الملكية ، الرباط ، 1974 ، ص 308 .

(6) المصدر نفسه ص 308 .

(7) وقد كان سعيد المقري هذا ، غزير العلم ، مبرّزاً في فنونه ، وبخاصة في علمي الفقه والحديث ، وقد ظل مفتياً لمدينة تلمسان ، نحواً من ستين سنة . ينظر : أحمد المقري التلمساني : روضة الآس ، ص ط .

(8) العباس بن إبراهيم : الإعلام 2 / 309 .

(9) ينظر المقري : روضة الآس ص .

(10) العباس بن إبراهيم : الإلام ص : 309 .

(11) ينظر المقري : روضة الآس ص ي .

(12) المقري : المصدر نفسه والصفحة .

(13) المقري : أزهار الرياض 1 / من مقدمة المحقق .

(14) ينظر في ترجمته : عبدالواحد عبدالسلام شعيب : القاضي عياض مؤرخاً ، ص 19 هامش رقم (1) .

(15) يرى الأستاذ : عبدعبدالوهاب بن منصور ، أن المقري قد كتب مشروع كتابه (روضة الآس) أو مسوّدته قبل مجيئه إلى فاس بنحو عامين ، ينظر تقديم عبدالوهاب بن منصور لكتاب روضة الآس ص .

(16) أحمد المقري : روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1964 ، ص 163 ـ 164 .

(17) أحمد المقري : المصدر نفسه ، ص 202 ـ 203 .

(18) ينظر ترجمته في : سلوك الأنفاس ص 133 .

(19) ينظر في ترجمته : أحمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج 2 / 281 ـ 285 ، أحمد المقري التلمساني : روضة الآس 303 ـ 313 . العباس بن إبراهيم : الإعلام 2 / 302 ـ 307 . المحيي : خلاصة الأثر 1 / 170 .

(20) ينظر : العباس بن إبراهيم : الإعلام 2 / 309 ، أحمد المقري : روضة الآس ، من التقديم ص يو .

(21) ينظر : المقري : روضة الآس ص يز من التقديم .

(22) أبوالقاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 2 / 217 .

(23) أحمد المقري : أزهار الرياض 1 / 61 .

(24) أحمد المقري : نفح الطيب 1 / 108 .

(25) ينظر أحمد المقري : روضة الآس ص يو من التقديم .

(26) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، ص 36 و 37 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(27) المقري : روضة الآس ص يو من التقديم .
(28) ابن سعيد : المغرب في حُلي المغرب 1 / 66 .
(29) أحمد المقري : روضة الآس ص 24 .
(30) المصدر نفسه والصفحة .
(31) الحميدي : جذوة المقتبس 1 / 399 . ابن بشكوال : الصّلة 1 / 395 .
(32) أحمد المقري : روضة الآس ص يد من التقديم للكتاب .
(33) المصدر نفسه ص 204 .
(34) المصدر نفسه ص يه من التقديم للكتاب .
(35) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب 1 / 66 .
(36) ينظر رسالة بن سعيد التي ذيل بها على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، نفح الطيب 3 / 181 .
(37) من أمثلة نقول المقري عن هذا الكتاب ، ينظر : أزهار الرياض 2 / 301 .
(38) يعتبر أحمد المقري المؤرّخ الوحيد الذي احتفظ بنصّ هذه الرسالة القيمة . ينظر : نفح الطيب 3 / 156 ـ 186 .
(39) ينظر نفح الطيب 4 / 255 .
(40) المصدر نفسه 4 / 215 .
(41) أحمد المقري : أزهار الرياض 1 / 26 .
(42) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب 1 / 66 .
(43) أحمد المقري : أزهار الرياض 1 / 47 .
(44) أحمد المقري : أزهار الرياض 1 / 297 و 298 .
(45) أحمد المقري : أزهار الرياض 1 / 297 و 298 .
(46) أحمد المقري : روضة الآس ص 20 و 21 .
(47) أحمد المقري : نفح الطيب 1 / 616 .

المصادر والمراجع

- ابن إبراهيم ، العبّاس : الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ، نشر عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط 1976 م .
- ابن بشكوال ، أبوالقاسم خلف : كتاب الصلة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط1 ، 1989 م .
- التنبكتي ، أحمد بابا : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ـ بيروت ط 2 ، 1982 م .
- ابن حزم ، أبو محمد علي : رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها ، أوردها القلي في كتاب نفح الطيب ، تحقيق : إحسان عبّاس ، بيروت ، 1968 م .
- الحميدي ، أبوعبدالله محمد : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط 2 1989 م .
- ابن خاقان ، الفتح : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق الشيخ الطاهر بن عاشور ، الدار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التونسية للنشر ، 1990 م .
ـ سعد الله ، أبوالقاسم: تاريخ الجزائر الثقافي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 م .
ـ ابن سعيد المغربي ، علي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، 1955 م
ـ ابن عبدالمنعم الحميري ، محمد : الروض المعطاء في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار القلم للطباعة ، بيروت ، 1975 م .
ـ شعيب ، عبدالواحد عبدالسلام ، القاضي عياض مؤرخاً ، دراسة منهجية نقدية مقارنة ، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية ، مطابع الشويخ ، تطوان ، 2000 م .
ـ المقري التلمساني ، شهاب الدين أحمد : أزهار الرياض في أخبار عياض ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط 1978 .
ـ : روضة الآس العاطرة الأنفس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1964 م .
ـ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت 1978 م .
ـ : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تحقيق محمد مطيع ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب 2000 م .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com